نظريات التعلّم 02

ثانيا/ النظرية البيولوجية (الفطرية / اللغوية) Biological theory (innate/linguistic)

- تمهيد:

تعدّ هذه النظرية من أهمّ النظريات الّتي ثارت على الفكر السلوكي وعارضت النزعة البنيوية المعاصرة بوصفها نزعة صورية شكلية تهتمّ بتحليل نسق اللغة، فحاولت هذه النظرية أن تؤكّد أنّ الإنسان مبتكر مجدّد للغته.
واعتمدت النظرية البيولوجية على المنهج الاستبطاني في التحليل والبرهنة قصد التوصّل إلى نتائج موضوعية، فهي بهذا من أشهر النظريات الذهنية الّتي حاولت اكتشاف الحقائق العقلية الكامنة وراء السلوك.

- تعريف النظرية البيولوجية:

النظرية الفطرية أو اللغوية أو البيولوجية أو النظرية التوليدية وجميعها مسميات لفكر واحد يعود إلى نظرية تشومسكي التي تعتمد على النزعة العقلية، ويمثّل هذا الاتجاه في تفسير عمليتي اكتساب اللغة والتعلم "لونًا من المدخل التوليدي، والمصطلح مأخوذ من تأكيد التوليديين أنّ اكتساب اللغة مركوز في الإنسان بالولادة، أي أنّنا نولد بجهاز داخلي من نوع ما، يوجّهنا إلى اكتساب اللغة، أي إلى إدراك اللغة التي حولنا إدراكًا منظمًا وإلى إنتاجها بعد أن يتمّ استيعابها داخليًا"[1]
حاولت هذه النظرية شرح وتفسير آلية اكتساب اللغة وكذا المعارف المختلفة، من خلال تبنّيها للطرح القائل أنّ الإنسان يملك خصائص نظرية تفسّر لنا كيف يستطيع الطفل أن يتقن لغة في وقت قصير، حيث تشبه هذه المعرفة الفطرية صندوقًا صغيرًا أطلق عليه "جهاز الاكتساب".

لذلك فقد رفض التوليديون أطروحة السلوكيين القائلة أنّ الإنسان يولد صفحة بيضاء، وأنّ المحيط الخارجي هو الّذي يكسبه المعارف والخبرات في إطار ثنائية مثير استجابة عن طريق التجربة، فهم يؤكدون "فرضية ما يعرف بالفطرية(Innéisme) أي الوجود الأوّلي للأفكار والبنيات المعرفية"[1]
والفطرية بهذا الطرح تعني الاستعداد البيولوجي الخاص عند الإنسان للاكتساب، وهو استعداد قبلي لا يتدخّل فيه المحيط، أي تمّ تفسير عملية التعلّم على أساس وجود نماذج خارجية.

- مبادئ النظرية البيولوجية:

ا- اكتساب اللغة: لقد اعتقد العلماء حتّى سنه 1950 أنّ اكتساب اللغة يحدث من خلال "التمثيل القياسي لملاحظة أنماط الجمل الحاصلة في التعبيرات التي يسمعها الطفل ويفهمها، وهذا ما فضله الأشخاص الذين يميلون إلى التفسير السلوكي"[1]

دحض تشومسكي هذه التصورات السلوكية الّتي نادى بها سكينر وغيره، معلنًا أنّ اكتساب المعرفة اللغوية يعتمد على نموذج فطري خاص بالإنسان دون غيره من الكائنات، يمكّن هذا الفرد السوي من اكتساب اللغة واستعمالها، ثمّ تشكيل قواعدها، فنادى تشومسكي بأنّ الطفل "يولد وهو مزوّد بقدرات فطرية تؤهله لتقبّل المعلومات اللغوية، ولتكوين بنى اللغة، أي أنّ له قدرة على تكوين قواعد لغته من خلال الكلام الّذي يسمعه، فهو يمتلك بطريقة لا شعورية القواعد الكامنة ضمن المعطيات اللغوية التي يسمعها"[1]

فالصلة وثيقة بين المعرفة والعقل الإنساني حيث يكتسب الإنسان المعرفة اعتمادًا على البيئة العقلية الفطرية الّتي تمثّل جوهر اكتساب المعرفة، فالعقل ملكات خاصة تقدّم لنا معرفة حدسية[2]، وهذا ما سمّاه تشومسكي بملكة اللغة الّتي تمثّل البنية العقلية الفطرية المحدّدة وراثيًا وبيولوجيًا، والّتي بدونها لن يكتسب الإنسان أي معرفة.

ب- فطرية اللغة(اللغة ملكة): تقوم الأطروحة الفطرية عند تشومسكي على الاعتقاد بأنّ اللغة ترتكز على مخزون غني من المبادئ والأفكار الفطرية، أين تمّ الربط بين عملية الاكتساب، والنضج البيولوجي، رغم أنّ اكتساب اللغة أكثر مماثلة للتحديد الجيني للمهارات كمهارة المشي على القدمين أو الكتابة، فالطفل يولد وهو غير قادر على المشي أو الكتابة، ومع ذلك يتمتّع باستعداد بيولوجي فطري لتعلّم المشي وليس لديه استعداد بيولوجي للكتابة لأنّ تعلّم هذه الأخيرة متعلّق بالتدريب والتمرين، فاستعمال اللغة يماثل المشي على القدمين"[3]

ويستند تشومسكي في نظريته على وجود اللغة ملكة بعدّها البنية الفطرية الّتي تمثّل جهاز اكتساب اللغة (LAD)*، وشبهه بأنّه صندوق أسود صغير افتراضي، يمتاز بالخصائص التالية:[4]

1-القدرة على تمييز أصوات الكلام من الأصوات الأخرى الموجودة في البيئة.

2- القدرة على تصنيف الأصوات اللغوية إلى أنواع يجري تهذيبها لاحقًا.

3- الاختيار بين ما هو ممكن وما هو غير ممكن من الأنظمة اللغوية.

4- القدرة على إنتاج نظام لغوي مبسّط بما يتوافر من مواد.

فـ (LAD) آلية عقلية تجعل من الطفل على قدر من الحساسية للفونيمات والوحدات الصوتية، والتراكيب اللغوية والمعاني، كما يضمّ هذا الجهاز قواعدًا تنطبق على جميع اللغات، إذ يقوم بإعداد المعلومات ومساعدة الطفل على تحصيل وفهم مفردات وقواعد اللغة الّتي تمكّنه من تفسير وتكوين الجمل.

---

*- وهو اختصار للمصطلح الانجليزي: Language Acquisition Device

جـ –النمو العام (الكلّية): يؤكّد تشومسكي أن الطفل يولد بمعرفة فطرية(LAD)، وهذه الخاصية كلّية عند جميع البشر، أي أنّه يقرّ بوجود أنماط لغوية ومعرفية مشتركة بينهم، فهم مبرمجون بيولوجيا لاكتساب اللغة وفي تقدّمهم من مرحلة إلى أخرى، كما أنّ كلّية اللغة أيضًا تشير إلى أنّ الناس يكتسبونها بطريقة واحدة، ولقد سمّى تشومسكي هذه المبادئ الكلية الموجودة في الإنسان على نحو فطري بيولوجي بـ"النحو العام"، ويقصد به أنّ المتكلّم يعرف مجموعة من المبادئ العامة الّتي تنطبق على كل اللغات، وذلك أن "اللغة ملكة فطرية، وذلك يعني أنّنا ولدنا ولدينا نسق من القواعد تدور حول اللغة في عقولنا، وتسمى بالنحو العام"[4]، وعلّل تشومسكي فكرة وجود النحو الكلّي بالسهولة الّتي يكتسب بها الأطفال اللغة الأم، كما أنهم يستنتجون القواعد من اللغة التي يسمعونها لإنتاج الجمل الّتي لم يسمعوها من قبل.

د- القدرة اللغوية / الأداء اللغوي(Performance / Compétence):

تعرّف القدرة أو الكفاية بأنّها "معرفة الإنسان الضمنية باللغة، أو بالأحرى هي معرفة الإنسان الضمنية بقواعد اللغة الّتي تقود عملية التكلّم بها"[3] فهذه القواعد الضمنية هي الّتي تجعل المتكلّم / السامع قادر على إنتاج وتأويل مالا حصر له من الجمل النحوية الّتي لم يسبق له أنّ أنتجها أو أسمعها.

أمّا الأداء فهو "الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معيّن"[2]، أي يقتضي الأداء(الإنجاز) التحقيق الفعلي للقواعد الضمنية الّتي يمتلكها الفرد عن لغته. غير أنّ الأداء لا يطابق دومًا القدرة الضمنية الّتي تتسم بالتجريد، فالقدرة اللغوية نسق مثالي مشترك بين الأفراد، أمّا الانجاز فممارسة فردية تعكس الإختلالات الموجودة بينهم، فالأولى -يؤكّد تشومسكي- من صميم اهتمامات علماء اللغة، أمّا الثانية (الأداء) فهي مدار بحث علماء النفس أين يحاولون الحصول على حقائق حول البنية اللغوية.

هـ- إبداعية اللغة: وهي نتيجة من نتائج التفريق بين الإنسان والحيوان، فهي القدرة الّتي تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على إنتاج وفهم عدد غير محدود من الجمل التي لم يسمعوها من قبل.

ـ التعلّم وفق النظرية البيولوجية:

بلور تشومسكي نظرية عقلية رصينة وصفت السلوك اللغوي، وآليات اكتساب المعرفة عند الإنسان، فجعل من التعلّم عملية يتمّ فيها "اكتساب المتعلّم لكفاية لغوية، والّتي تمكّنه من إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود جدًا من الفونيمات الصوتية، والقدرة على الحكم على صحة الجمل الّتي يسمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية"[1]،

فاللغة إبداع وإنتاج "وعملية الإنتاج هذه ابتكار لا يظهر إلّا بتوافر شروط محدّدة، فهي مخزن لا نفاذ له للإنسان من جمل وعبارات مخزونة يستعمل منها ما يشاء وقت ما يشاء دون تكلّف ظاهر في كلّ زمان ومكان"

وهنا ينصهر مفهوم الكفاية والانجاز لأنّ فعل إنجاز هذا المتعلّم يعكس قدرته اللغوية، أمّا عن الظروف الّتي يتحقّق فيها الانجاز والقدرة فهي الوضعية التربوية الّتي توفرها بيئة التعلّم من متغيّرات مرتبطة بالمتعلّم والمعلم والإطار الزماني والمكاني الّذي يجري فيه فعل التعلّم، وما يحيط به من خصائص اجتماعية واقتصادية وثقافية، وكلّ هذا يحيل إلى أنّ النظرية البيولوجية في التعلّم أعطت المركزية للمتعلّم وجعلته محور العلمية التعلّمية والتعليمية لأنّه يملك عقلًا، وما اللغة ومن ثمّ التعلّم إلّا نتاج لهذا العقل.

- نقد النظرية البيولوجية:

وجهت إلى هذه النظرية عدة انتقادات، منها:

1- القول أن الطفل يمتلك جهازًا فطريًا للاكتساب، وأنّه يمتلك نظرية لغوية معقّدة يطبقها على لغة بيئته لا يستند إلى أدلّة واقعية، وهو هنا شبيه بالقول أن الطائر يمتلك نظرية في بناء العش، وإنّ له مجموعة من الفرضيات في اختيار المواد الّتي يستخدمها.

2- نادى تشومسكي بفطرية اللغة وأكّد سهولة تعلّم الطفل للغة، لكن هيلاري بوتنام(H.Putnam) ينتقد تشومسكي الّذي أهمل دور التعزيز الواعي للطفل، والّذي يتمثّل في التكرار المستمر للكلمات والجمل الّذي يساهم في إجادة الطفل للغته

3- إنّ الملكة الإبداعية لدى الطفل المتكلّم بلغته الأم، أي القدرة على إنشاء جمل لم يسمعها من قبل، ليست خاصة باللغة، بل هي صفة من صفات الجهاز البيولوجي للكائن البشري القادر على القيام بعدّة حركات لم يقم بها قبلًا.

4- النضج العقلي للدماغ والجهاز الصوتي شرط أساسي لاكتساب القدرة على الكلام، وهذا لا يعني بالضرورة أنّ اللغة فطرية، بل هناك استعداد لاكتسابها، ولا يتحقّق ذلك إلّا بالتفاعل مع البيئة الموجودة فيها هذا الطفل.[1]

5- استبعد تشومسكي دور الأسرة في تصحيح لغة الطفل، وحصر دورها في ما أسماه بالدور التوسّعي، أي دمج جمل الطفل بعد تعديلها في جملهم، فالطفل لا يكتشف النّظم الخاصة بلغة الكبار إلّا بعد تصحيحها، فاكتساب الطفل للغته مرهون بقدر التغذية الراجعة للأسرة.

6- لم ينجح علماء النفس إلّا في اكتشاف عدد ضئيل جدًا من الكليات الّتي أشار إليها تشومسكي في التراكيب اللغوية بين اللغات المختلفة، وبالتالي لا يمكن تعميم فرضياته على كلّ اللغات.